الفصل الخامس

نظم اجتماعية وعقائدية لدي شعوب بدائية

- الخطبة لدى الجماعات البدائية .
- تغلغل الأرواح فى كل الموجودات .
- للهدية رموز وطقوس .
- العقيدة الطوطمية .
- ..... ونظم أخرى .

obeikandl.com

obeikandl.com

• الخطبة لدى الجماعات الهمجية والبدائية[1]:

فى الجماعات الهمجية والبدائية التى تعيش على الصيد والقنص، يقوم الرجل بإعلان رغبته إلى المرأة التى اختارها مباشرة، فإذا استجابت تزوجا، فهى صاحبة الشأن فى قبول الرجل أو رفضه.

هذا، وتختلف أساليب الرفض والقبول فى تلك الجماعات باختلاف عاداتها وتقاليدها، فعند بعضها يأتى الخاطب ببعض صيده فيلقيه أمام المرأة، فإن هى أخذته فقد رضيت به زوجًا.

وعند بعض الجماعات الأخرى يأتى الخاطب إلى كوخ المرأة، فإن هى أحسنت استقباله وقدمت إليه بعض الفاكهة فقد ارتضته زوجًا لها، وإذا أكل مما قدمته إليه انعقد الزواج بينهما، وصحبته إلى كوخه.

وعند جماعات أخرى يخطب الرجل المرأة من أبيها، ويقدم إليه بعض الهدايا، فيسأل الأب ابنته، فإن رفضت لا يجبرها على القبول ويعيد الهدايا إلى الخاطب..

أو قد تُخْطَبُ المرأة من ذويها فلا يرفضون، وإنما يختارون يوماً تُرسل فيه المرأة إلى الغابة وتختفى فيها، ثم يتبعها الخاطب بعد زمن معين ليبحث عنها، فإن ظهرت له فيعنى ذلك أنها رضيت به زوجاً، وإن اختفت عنه ولم يعثر عليها فيعنى ذلك أنها قد رفضته.

---

(١) قصه الزواج: إدوارد ويسترمارك (بتصرف).

وقد تأخذ الخطبة شكلاً آخر مؤداه إذا تقدم للمرأة عدة خطاب، تقعد فى كوخ ولا تظهر لهم، ويطوف الخطاب وفى يد كل منهم عصًا من شجر «البامبو»، فمن أخذت المرأة عصاه فهو الذى اختارته من دون الآخرين.

ويعقب الخطبة احتفال يقصد منه إعلان الاتفاق على الزواج، يلتقى الخطيبان فى هذا الاحتفال ويعقدان أيديهما.

وفى بعض المناطق تجرح المخطوبة تحت ثديها الأيسر، ويقوم الخاطب بمص قطرة من الدم السائل.

وعند بعض الجماعات الهندية البدائية تجرح المخطوبة بنصرها اليسرى ويجرح الخاطب بنصره اليمنى، وتؤخذ قطرات من دم البنصرين، وتمزج فى أرز مطبوخ يأكل منه الخاطبان.

وعند جماعات أخرى يمسح كل من الخاطبين يده فى جرح الآخر. وقد يمسح الخاطبان جبينيهما بدم دجاجة تُذبح على عتبة منزل المخطوبة.

وعند كثير من الجماعات القبلية فى أمريكا، يرمز إلى اتحاد الخاطبين باقتسام «كعكة» تصنع من دقيق الذرة، أو بالأكل من طعام واحد يقدم إليهما.

وعند قدماء اليونان والرومان كان الخاطبان يقتسمان «كعكة» مصنوعة من دقيق القمح، ويقدم كل منهما قطعة إلى الآخر[1].

* * *

(١) يلاحظ أنه قد شاعت هذه العادة فى العصر الحديث عند كثير من الشعوب.

* **الخطبة فى الجاهلية:**

كانت المرأة تخطب إلى وليها: أبيها أو عمها أو أخيها، فيقبل الولى الخاطب أو يرده، ولا يحق للمرأة أن تبدى رأيها فى خاطبها.

فإذا ارتضى الولى الخاطب جرى الاتفاق على المهر، ويحدد يوم الخطبة، وفيه يأتى الخاطب مع أبيه وأعمامه وأخواله وإخوته، وقد ارتدوا أفضل ثيابهم، فيلقاهم والد المخطوبة بالترحيب.

وبعد أن يستقر المجلس بالحاضرين يقول ولى الخاطب لولى المخطوبة، ولمن حضر من أهلها: «نحن أكفاؤكم ونظراؤكم، وقد جئنا نخطب ابنتكم «فلانة» ونحن لمصاهرتكم حامدون».

هذا، والبنت لا تُزَوَّج إلا لمن يساوى أباها فى الحسب والنسب. وفى الأسر الشريفة لا يجوز أن تقل مرتبة الزوج فى قومه عن مرتبة والد الزوجة فى السيادة والشرف.

وإذا تقدم لخطبة البنت نظير لأبيها، فليس للبنت أن ترفضه إذا رضيه أبوها.. وإذا تقدم لخطبتها رجلان كل منهما نظير لأبيها، فإن أباها يخيرها بينهما ويذكر لها صفات كل منهما وسجاياه، وليس للبنت أن ترفض، وإنما لها أن تختار أحدهما(١).

وقد يكون لسيد من سادات العرب عدة بنات، ويرغب نظير له فى مصاهرته والزواج من إحدى بناته، فيجمع الأب بناته ويستشيرهن فيه، ويشرح لهن صفاته لتختاره إحداهن. على أن من نساء العرب من كان أمرهن بيدهن، فكان يأتيها الخاطب فتجلس إليه، وتظهر أمامه على طبيعتها بدون تكلف ولا مصانعة، فإذا وافقت هواه تقدم وإلاَّ انصرف.

(١) الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام: الدكتور عبد السلام الترمانينى (بتصرف)

وقد ترد المرأة خاطبها إذا عرفت من صفاته ما لا يرضيها. وجدير بالإشارة أن هؤلاء النساء اللاتى كان أمرهن بيدهن هن من الأعراب، ممن تعاقب عليهن الأزواج، وكن شريفات فى قومهن، وقد أنجبن كثيرًا من البنين، ولم يكن يتحرجن من التحدث إلى الرجال والجلوس إليهم.

أما ما عداهن من الحرائر أو غيرهن فلم يكن يسمح لهن بالجلوس إلى الرجال إلا بحضور أوليائهن[1].

*** التشبيب بالفتاة للترغيب في خطبتها[2].**

إذا تأخر زواج البنت وخيف كسادها، كان يُطلب إلى شاعر مشهور أن يشبب بها للترغيب فى خطبتها، وكان ذلك مألوفًا فى الجاهلية فى طبقات العامة. أما نساء الخاصة فيمتنع التشبيب بهن، وقد يتعرض شاعر للقتل إذا شبب بإحداهن[3].

وإذا شبب شاعر بفتاة فلا يجوز له أن يخطبها، ويرفض أبوها تزويجها إليه؛ لكيلا يصدق قول الناس فيها بتزويجه إياها.

هذا، وقد امتنع على الشعراء العذريين الزواج من محبوباتهم لتشبيبهم بهن[4].

وقد تُناط الخطبة بالقابلات، أو امرأة تدعى «الخطَّابة» تجوب البيوت، وتتمتع عادة بحظ وافر من الذكاء وطلاقة اللسان، وتحسن التشبيه وضرب الأمثال، وقد تمارس مهنة بيع أصناف من سلع النساء اللاتى يمتنع عليهن الخروج إلى الأسواق.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) التشبيب: إيقاد النار وإذكاؤها. وشبَّب بالمرأة أى تغزَّل فيها.

(٣) فقد قتل الوليد بن عبد الملك الشاعر وضاح اليمن؛ لأنه شبب بزوجته أم البنين.

(٤) المرجع السابق (بتصرف).

ولم تكن مهمة «الخطَّابة» البحث عن زوجة لرجل فحسب، بل كانت تدعى للبحث عن زوج لفتاة كاسدة، أو يخشى كسادها، أو لامرأة أيم، فإذا وجدت «الخطَّابة» رجلاً أعزبَ أو غريباً يبحث عن زوجة أحاطت به واستهوته بما تبتدع من أوصاف لمحاسن الفتاة أو المرأة، فتصيبه بسحر قولها، وتدفعه إلى القبول، وغالبًا ما تكون المرأة قبيحة أو عجوزًا، ولا يكتشف الحقيقة إلا عندما تزف إليه.

وهكذا كان شأن «الخطَّابات» مع من يقصدهن من الرجال، فقد كن يستخدمن كثيرًا من أساليب التمويه والخداع فى ترويج وإعلاء شأن من يتوسطن فى تزويجهن من النساء[1].

* * *

*** المهر فى الأزمنة القديمة[2]:**

كان الرجل فى الجماعات البدائية يعد زوجته ملكًا له؛ لأنه اشتراها بماله، وأيضًا يعد أولاده ملكًا له؛ لأنهم نتاجه، فكان يتصرف فى زوجته وأولاده تصرفه فى ماله.

وفى الجماعات التى تعتمد على الصيد كان الرجل يشترى المرأة بما يقدم لأبيها من صيد. وفى الجماعات التى تعتمد على الرعى، كان الرجل يشترى المرأة بما يقدم لأبيها من رءوس الماشية. وفى المجتمعات الزراعية كان ثمن المرأة غلالاً أو حيوانًا، وبظهور النقد أصبح الثمن نقدًا.

أما الفقراء الذين لا يستطيعون شراء المرأة فى تلك المجتمعات فكانوا يتبادلون الأخوات، فتكون كل أخت ثمنًا للأخرى.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) المهر كلمة من أصل سامىٍّ (موهار: Mohar) وانتقلت إلى اللغة العربية باسم «مهر» وكانت تعنى ثمن المرأة.

وقد يقدم الرجل عملاً أو خدمة لوالد المرأة، فيكون عمله أو خدمته ثمنًا للمرأة. . . ومما يدل على أن المرأة فيما مضى كانت شيئًا مملوكاً، أنها كانت تُجْعَلُ تعويضًا ودية فى حالات القتل، حيث كان المتهم بالقتل يعطى ابنته أو أخته لولى المقتول، فيتزوجها ويُبرم بذلك الزواج.

وكان الزواج عند قدماء اليونان يتم بشراء المرأة بعدد من الثيران أو ما يساويها، يسلمها الخاطب إلى أبيها.

وعند قدماء الرومان كان انتقال ملكية المرأة من أبيها إلى زوجها يتم بطريق البيع بالقبض، أو ما يسمى بـ «المانسباسيو» Mancipatio وبها يدفع الزوج الثمن ويقبض المرأة كما يقبض أى شىء مبيع.

وعند عرب الجاهلية كان المهر ثمناً المرأة يتبضه أبوها، أو وليها، ويسمى «النافجة»[1]. . . وكان المهر عادة عددًا من الإبل يسوقها الخاطب إلى بيت مخطوبته، فتسمى «السياق»، وعددها يقدر بمكانة المرأة فى قومها وحظها من الحسن والجمال[2].

* طقوس نقل جهاز العروس فى الماضى[3]:

جرت العادة ـ قديما ـ أن يعرض الجهاز فى بيت والدِ العروس، ويدعى أهل العريس والأقارب والأصدقاء لاستعراضه فى حفل يُقام لهم، ثم توضع ملابس العروس فى صناديق مزخرفة بالنقوش، وتحمل على دواب، وأما

---

(١) النافجة هو كل ما ينفج فى مال الرجل أى يزيد فيه ويعظمه [انظر لسان العرب ـ مادة نفج]

(٢) الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام: الدكتور عبد السلام الترمانينى (بتصرف).

(٣) من أشهر أجهزة العرائس جهاز «قطر الندى» بنة خمارويه بن أحمد بن طولون أمير مصر، وكان الخليفة المعتضد بالله قد عقد عليها، وحمل جهازها من مصر إلى بغداد.=

الأمتعة الأخرى من فرش ووسائل وأغطية ومطرزات فكانت تُحمل على الأكف أو الأكتاف، يحملها شباب يلبسون أحسن ثيابهم.

وينقل الجهاز من بيت العروس إلى بيت الزوجية فى موكب تتقدمه الموسيقى الشعبية، ويحف بالجهاز شباب من إخوة الزوج وأبناء عمومته وخئولته وأصدقائه وهم يهللون ويتعمدون مرور الموكب من أسواق الأحياء للشهرة، وكلما مروا بحى وقف الموكب عند مقهى الحى أو ساحته، وعزفت الموسيقى، وهكذا حتى يصل الموكب إلى بيت الزوجية الجديد، فتتلقاه النساء بالزغاريد ويشاركهن فى ذلك نساء الحى اللاتى جئن للفرجة. وجدير بالإشارة أن الحى كله يكون فى فرح وحبور ينتشى فى مثل هذه المناسبات.

هذا، وقد ظل نقل الجهاز يجرى فى احتفال علنى تشهده الأحياء التى يمر فيها، ويعرض على الناس إلى عهد قريب، ثم أخذ يتلاشى مع كثير من عادات الزواج، وظلت منه بقية فى بعض الأحياء الشعبية فيها مسحة ضئيلة من الماضى[1].

* * *

= ومن أشهرها أيضًا جهاز ابنة السلطان «ملكشاه السلجوقى». وكان الخليفة المقتدى بالله عقد عليها، وقد حمل جهازها من أصفهان إلى بغداد على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومى، وكانت أحمالها أمتعة من الذهب والفضة، فضلاً عن الصناديق التى حملت على مائة وسبعين بغلاً، يتقدمها ثلاثة وثلاثون فارسًا يمتطون خيولا مطهمة، ويتقدم الموكب فرقة موسيقية تضرب بالبوقات.

كذلك نقل جهاز ابنة السلطان «بركيا روق بن ملكشاه» وكان الخليفة المستظهر بالله عقد عليها، وسار الموكب من أصفهان إلى بغداد فى مائة واثنين وسبعين جملاً مجللة بالديباج.

(١) المرجع السابق (بتصرف).

نظم تقليدية فى المجتمعات البدائية

*** القنص والصيد عند الهنود الحمر[1]:**

كان الهنود الحُمر يباشرون فى الغالب أعمال الصيد وهم عراة، حتى لا تعوق الملابس حركتهم... فيندفع الهندى عاريًا نحو الدب يتحرش به ويثيره حتى يبلغ لديه الغضب، فينتصب واقفًا للوثوب على الهندى للبطش به. عندئذ يتقدم الهندى رابط الجأش فيهوى بخنجره إلى قلب الدب، مارا بين ذراعيه المنفرجتين، فيرديه مضرجًا بدمه إن أصاب مقتله، أو يلقى حتفه بين أنياب الدب ومخالبه إن طاشت طعنته.

وفى صيد الجاموس الوحشى كان الهندى يقرب منه فيقفز من ظهر جواده ويستقر على ظهره فيغمد خنجره بين كتفيه.

ويعتمد الهندى على الحيلة والدهاء، فكان يحاكى سباع الحيوانات فى الأساليب التى تسلكها للحصول على فريستها... فكان يختفى ساعات طويلة بدون حراك مترقبًا مرور الصيد للانقضاض عليه كما تفعل الفهود والنمور. كما كان يغوص فى الماء متعقبًا الأسماك كما تفعل كلاب البحر... وكان يحاكى أصوات الدجاج ويقلدها فى مشيها حتى تأنس إليه وتقبل نحوه فينقض عليها كما تفعل الثعالب.

كما أنه كان يقلد أصوات الوعول، فيقف على ربوة ويصرخ محاكيًا أصواتها، فتخرج الوعول من مختلف الفجاج وتركض شطر الصوت وهو يتابع خواره وصياحه حتى تصبح على مرمى قوسه، فيعمل فيها سهامه، فيصيب منها ما يشاء..

---

(١) الهنود الحمر: د. على عبد الواحد وافى (بتصرف).

كما كان يحمل معه أحيانًا جلدًا كاملا للحيوان الذى يريد صيده، ويتعقب آثاره حتى يلمح قطيعًا منه عن بعد، فيلبس هذا الجلد ويسير منحنياً كمن يمشى على أربع مخفيًا قوسه وسهامه بين يديه، ويتقدم نحو القطيع محاكيًا مشيته، فيبدو لأفراده كأنه واحد منها، وهو يدنو منها شيئًا فشيئًا حتى تصبح على مرمى قوسه، فينتصب قائما ويعمل فيها سهامه فيصيب منها ما يشاء.

ويرى بعض الباحثين أن الهندى مُزَوَّدٌ بحواس شبيهة بحواس بعض الحيوانات التى يستخدمها فى إدارك ما يجول بخاطر الحيوان.

* * *

*** زوجة للإيجار:**

عند بعض الشعوب البدائية ـ وخاصة عند بعض عشائر سكان استراليا الأصليين ـ يباح للمرأة فى غيبة زوجها أن تعيش مع رجل تختاره لتجد فى كنفه ما يلزم لها من رعاية وحماية، إلا أنها لا تعد زوجة له، وإنما كانت تبقى من الناحية الشرعية لديهم على ذمة زوجها الغائب.

وفى بعض المجتمعات كان يباح للزوج أن يعير زوجته أو يؤجرها لشخص آخر أو يقدمها لضيوفه، وكان ينظر إلى هذا الإجراء الأخير لدى هذه المجتمعات على أنه مظهر من مظاهر تكريم الضيف والحفاوة به. ففى بعض عشائر سكان أستراليا الأصليين كان يستطيع أى رجل أن يستأجر امرأة صديقه للاستمتاع بها مدة ما لقاء أجر معين.

وفى أثينا كان كثير من عظماء الرجال أنفسهم يعيرون زوجاتهم لغيرهم، وقد أعار سقراط نفسه زوجته «جزا نتيب» إلى «اليسياب». فتقديم الزوجة للضيف كان تقليداً متبعًا عند كثير من الشعوب السامية وغيرها.

وفى بعض العشائر الأسترالية جرت التقاليد أن يتصل بالعروس قبل زفافها إلى زوجها بعض أفراد معينين من رجال عشيرتها.

وقد حدد العرف طبقات الأفراد الذين يُباح لهم ذلك، ونظم اتصالهم بالعروس ورتبهم بحسب درجة قرابتهم، فجعل لكل منهم دورًا لا يستقدمه ولا يستأخره.

وفى بعض المجتمعات كان يتحتم أن يدخل على العروس قبل أن تزف إلى زوجها بعض رجال الدين، أو السحرة، أو ذوى السلطان، أو طائفة من ضيوف العروس، أو غير هؤلاء.

وقد جرت العادة فى «مالابار Malabar » بالهند أن تقضى عروس الملك بعد أن يتم عقد زواجها به الليالى الثلاث الأولى مع كبير رجال الدين، وبعد انقضاء هذه المدة كان يمنحه الملك خمسين قطعة من الذهب مكافأة له على ما قام به!

وفى جزر «البليار» كانت العروس تقدم نفسها فى الليلة الأولى من زفافها لجميع من يحضر عرسها من المدعوين من الرجال.

وفى منطقة «الكوشنشين» بالهند الصينية لا يجوز للعروس أن تزف إلى زوجها إلاَّ بعد أن تعرض على الملك ويتصل بها إذا شاء[1].

* * *

(١) غرائب النظم والتقاليد والعادات: د. على عبد الواحد وافى (بتصرف).

* **نظم الهدايا الملزمة:**

من أشهر الأساليب التى كانت تستخدمها الشعوب البدائية لتبادل الثروات ما يسمى بـ «الهدايا الملزمة». وهو أسلوب بمقتضاه تقدم كل عشيرة إلى العشائر الأخرى هدايا من الأشياء التى تملكها على أن يلتزم المهدى إليهم برد هدايا تزيد قيمتها على ما قبلوه فى المرة الأولى، وذلك فى مناسبات أخرى، ومن ثم جاءت تسميتها «بالهدايا الملزمة»(١).

ومن أهم صور هذا النظام وأكثرها انتشارًا الآتى:

«الكولا Kula» «والوازى» Wazy . . والبوتلاتشى Potlatch فنجد بالنسبة لنظام الكولا(٢) أنه يتضمن هدايا متبادلة فى مواسم معينة وفى مناسبات خاصة، وذلك بأشياء تكثر لديها إلى أخرى محرومة منها. والأشياء التى كانت تجرى فيها المهاداة أو المبادلة هى الأساور والعقود التى كانت تُصْنَع بمهارة من المحار والصدف أو غيرهما.

وكان يتم تقديم هدايا «الكولا» فى فصول خاصة من السنة، وفى مناسبات معلومة كالأعياد الدينية، وحفلات الوفاة، وبعض الحوادث العائلية، ويتبع فى تقديمها قواعد وأساليب دينية كثيرة التعقيد، فمن ذلك أن كلا من الأساور والعقود كان يقوم بتقديمها النساء، إلا فى بعض المناسبات، كحفلات المآتم. . . وكان المُهْدِى يقذف بها تحت قدمى المُهْدَى إليه قائلا للمهدَى إليه إنه لم يقدم إلا شيئًا تافهاً فضل عن حاجته. . . أما المهدى إليه

---

(١) فهى ـ وإن كانت هدايا فى الظاهر ـ مبادلات ربوية فى حقيقة الأمر.

(٢) هى كلمة مأخوذة من لهجات السكان الأصليين لميلانزيا، ومعناها الأصلى الدائرة، حيث إن هذا النظام معمول به فى جزر ميلانزيا، وبخاصة التروبرياند.

فكان يتجاهل الهدية الملقاة تحت قدميه ولا يمد إليها يده إلا بعد مضى فترة غير قصيرة. . . وبهذه المظاهر كانوا يلبسون صنعيهم ثوبًا من الكرم والعظمة والنبل.

ونظام «الوازى»[1] يجرى بين المناطق التى يشتغل أهلها بالزراعة، والمناطق التى يشتغل أهلها بالصيد البحرى واستخراج اللؤلؤ، حيث يقوم سكان المناطق الزراعية بحمل ما يزيد على حاجتهم من منتجات أرضهم إلى سكان المناطق الأخرى، فيضعونه أمام مساكنهم ثم يعودون إلى مناطقهم. . . وكذلك كان يفعل سكان المناطق الساحلية التى يغزر فيها محصول الصيد البحرى واللؤلؤ. وكان كل فريق منهما يحرص على أن تكون هديته أكبر قيمة من هدية الفريق الآخر.

وهناك نظام يُسمى نظام «البوتلاتش»[2]. وهذا النظام كان متبعا عند كثير من عشائر الهنود الحمر[3]. وهو يمتاز عما عداه من أشكال الهدايا الملزمة بالمبالغة فى التبذير والسرف وتبديد الثروات، وبما يحيط به من حالات نفسية تتمثل فى شدة المنافسة والاندفاع وراء حب التغلب والظهور على الطرف الآخر.

فقد كان رئيس العشيرة ينتهز مناسبة دينية أو اجتماعية كحلول عيد دينى، أو الولادة، أو الزواج، أو الوفاة، أو بلوغ البنات سن المحيض، أو ما شابه ذلك من مناسبات. . . فيقيم مأدبة يدعو إليها رؤساء العشائر المرتبطة مع عشيرته برابطة المصاهرة.

---

(١) وهو نظام متبع فى الجزر السابق ذكرها.

(٢) هى كلمة مأخوذة من لغات الهنود الحمر، ومعناها الأصلى فى لغتهم: الاستهلاك والتغذية.

(٣) الذين كانوا يسكنون الشمال الغربى لأمريكا الشمالية، ولا سيما لدى قبائل «الهايدا» و«التلنجيت».

ويعد قبول الدعوة إلى الوليمة التزامًا من جانب كل مدعو أن يولم وليمة أحسن منها، فينتهز كل منهم حلول أول فرصة ويقيم وليمة يدعو إليها من بين من يدعوهم صاحب الوليمة الأولى. . . فيقدم إليه من المأكل والهدايا ما تزيد قيمته كثيرا عما أخذه منه. وهكذا دواليك.

ويلاحظ أن الإحجام عن عمل وليمة عند وجود مناسبة من مناسباتها، أو عن قبول الهدايا التى تقدم فيها، أو ردها أضعافًا مضاعفة يجر على العشيرة عارًا أبديّاً، ويُعَرِّض أفرادها ورؤساءَها للامتهان والعقاب. فنظام «البوتلاتش» بذلك يعد نظامًا دينيّاً وقضائيّاً، بجانب كونه نظامًا اقتصاديّاً وسياسيّاً.

من ذلك كله يتبين لنا أن نظام الهديا الملزمة[1] فى مختلف صوره يؤدى إلى بث روح التضامن بين الشعوب والقبائل. وتعويد الفرد احترام العقود، والوفاء بالالتزامات.

*** كيفيه الحصول علي زوجة لدي الشعوب البدائية:**

اتخذت الشعوب البدائية عدة طرق للحصول على الزوجة منها:

الزواج بالشراء:

وهو أكثر الطرق انتشارًا بين تلك الشعوب لحصول الرجل على زوجة له، وكان الزواج بالشراء هو الطريقة المألوفة عند الساميين القدماء، وكانوا يطلقون على الثمن الذى يُدفَع لشراء الزوجة اسم «مُهر» بضم الميم[2].

---

(١) يلاحظ أن هذا النظام ما زالت له بقايا فى كثير من حياتنا الاجتماعية فى المناسبات، وخصوصا فى المناطق الزراعية.

(٢) ولا يزال هدا الاسم معروفا إلى اليوم، ولكن بصيغته المعروفة «مَهر» بفتح الميم وسكون الهاء.

وكان شراء الزوجة بالمال هو الطريقة المعتادة لعقد الزواج بين الشعوب الأوربية قديما[1] أيضًا، ولا تزال آثار هذه العادة باقية إلى اليوم بين أهالى قرى جنوب إسبانيا[2]، فالرجل هناك عندما يتقدم للزواج من فتاة أحلامه يقدم لأسرتها كل ما ادخره من مال، وهم يقومون من ناحيتهم بتجهيز فتاتهم بهذا المال.

والشعوب البدائية تقصد من عملية الشراء هذه التقدير والاعتبار، فالمبلغ الذى يُدفَع نظير حصول الرجل على زوجة له يعد مصدرَ فخرها وزهوها، فمن العار والمهانة للمرأة أن تتزوج بدون أن يدفع الرجل لزواجه منها شيئًا من المال. وقد تتزوج المرأة فى قبيلة «الدنكة» برجل لا تحبه، أو قبيح المنظر، فى سبيل مهر مرتفع القيمة. وينظر أهل أستراليا الأصليون إلى المرأة التى لم يدفع لها زوجها شيئًا عند الزواج كنظرتهم إلى المرأة العاهر!!.

ومما هو جدير بالذكر أن دفع المهر للزوجة فى الدول الأوربية فى العهد المسيحى الأول كان يعد الشرط الأساسى لشرعيَّة الزواج. وفى مستهل العصور الوسطى كانت الزيجات التى تتم بدون مهر تعد زيجات غير شرعية!

كما جرت العادة عند بعض الشعوب البدائية أن يقدم الرجل الهدايا لأرقاب وأهل المرأة التى يرغب فى الزواج منها.

ويصنع مثل هذا الصنيع كل شخص يريد أن يفصح عن مودته وصداقته لشخص آخر، وليست العبرة فى مثل هذه الهدايا بقيمتها، ففى بعض الأحيان تكون زهيدة القيمة لا تعدو حزمة من البصل أو فأرا من الفئران

(١) مما يذكر أن الحصول على الزوجة بالشراء كان هو الطريقة المألوفة فى الهند فى الزمن القديم، كما كان سائدا بين التتار والمغول، وبين الإغريق.

(٢) عادات الزواج وشعائره: أحمد الشنتناوى (بتصرف).

المخططة. وإذا ما حازت هذه الهدية البسيطة القبول استطاع الخاطب أن يتقدم لصهره بهدايا أخرى أكثر قيمة.

وهناك بعض الشعوب البدائية تعلق أهيمة كبرى على هدية الزواج وتتخذها مقياساً لمركز الزوج الاجتماعى ومدى ثروته، وهذا ما يحدث عادة بين أفراد الطبقة الثرية، أو ما نسميها الآن «الأرستقراطية».

ويتعين على أسرة الزوجة فى هذه الحالات أن ترد الهدية بأخرى لا تقل قيمة عنها، وليس فى هذا الإجراء ما يشبه المباذلة التجارية فى أية ناحية من النواحى، فالهدية التى تقدم بعيدة كل البعد عن أن تكون ثمناً للزوجة، بل هى مجرد ضمان تطلبه الزوجة أو أهلها للتدليل على مركز الخاطب من الناحية الاجتماعية، وعلى مدى قدرته على الإنفاق عليها.

ومن هنا لا تعد النساء الزواج بالشراء أمرًا مهينًا أو فيه حطة لقدرهن، بل على العكس من ذلك، يُعد مصدر فخر واعتزاز ـ كما سبق أن أشرنا.

والفتاة فى التبت الصينية قد تُباع أكثر من مرة، بمعنى أنه بعد أن يتم زواجها برجل نظير مبلغ معين من المال، ويتقدم رجل آخر ويعرض مهرًا يزيد على سابقه، فإن أباها فى هذه الحالة يرد الثمن الذى دفعه الزوج الأول ويزوج فتاته من الرجل الثانى، وقد تتكرر هذه العملية التفاضلية فتصل إلى عشر مرات.

*** الزواج بالأَسْر[1]:**

ويطلق على هذه الطريقة اسم الزواج بالسَّبْى... وهى أن يأخذ الرجل المرأة عنوة بدون رضائها أو رضاء أسرتها. ومن المعروف أن سبى النساء كان

(١) المرجع السابق (بتصرف).

من النتائج الطبيعية للحروب فى العصور القديمة، بل كان سبى النساء عند بعض الشعوب والجماعات البدائية هو الغرض الرئيسى من الحروب.

وتظهر عادة سبى النساء على أكمل صورة لها بين القبائل الهمجية التى تقطن جزر البحر الكاريبى، فهم يحصلون عادة ـ وبطريقة منتظمة ـ على الزوجة عن طريق الأسر(١).

وكان سبى امرأة واحدة يعد فى نظر القبائل البدائية سبباً كافيا لنشوب الحروب.

وهناك نوع آخر من الزواج بالأَسْر يختلف كل الاختلاف عن النوع السابق ذكره، وهو عبارة عن اختطاف امرأة بعينها فى غير أوقات الحرب والغارات، فالرجل يختطف المرأة التى يبتغيها لنفسه قوةً واقتداراً، رغماً عن إرادتها، وفى بعض الأحيان يكون الاختطاف أمراً متفقاً عليه بين الرجل والمرأة؛ ولذلك فالأمر فى هذه الحالة عبارة عن هروب أكثر منه اختطافًا، وقد يكون الاختطاف فى أحيان أخرى مجرد اختطاف وهمى، أى تمثيلى، وتكون أعمال العنف المصاحبة للاختطاف مجرد تمثيل مصطنع تشترك فيه المرأة وأقاربها مع الرجل وأقاربه.

وعادة اختطاف العروس ومقاومة أهلها هذا الاختطاف مقاومة وهمية أمر شائع فى كثير من الشعوب البدائية... وتفسير ذلك أنها إفصاح عن الخفر والحياء من جانب الزوجة وأهلها، فالعادة بين قبائل «الإسكيمو» فى «جرينلاند» أنه إذا أخذ الرجل زوجته إلى بيته فإن آداب السلوك توجب على

(١) قد ورد ذكر ذلك فى أقدم الوثائق الأثنوجرافية التى وصلت إلينا، وهى وثائق رحلة كولومبس إلى هذه الجهة من العالم، فقد ورد فى أخبار هذه الرحلة «أن أهل هذه الجزائر تغير على الجزر الأخرى وتسبى جميع النساء اللواتى يقعن فى أيديهم، وخاصة الصغيرات منهن، والأكثر جمالا، وهم يستبقونهن لخدمتهم أو ليتخذوهن محظيات لهم. وهم يأسرون العدد الكبير منهن بحيث إننا وجدنا فى خمسين كوخاً هناك أكثر من عشرين فتاة من هؤلاء السبايا».

هذه المرأة أن تبدى أشد المقاومة، وعلى الرجل من ناحيته أن يحملها عنوة إلى بيته، وهى تصرخ وتستغيث، وإن لم تفعل ذلك كانت امرأة لا خفر لها ولا حياء.

*** الزواج بالمؤاجرة:**

إن زواج المؤاجرة هو فى الواقع جزء من الزواج بالشراء، فقد جرت العادة عند كثير من الشعوب والقبائل البدائية على أنه إذا لم يستطع الرجل دفع ثمن زوجة، فإنه يؤجر نفسه لأبيها أو لذوى قرباها مدة من الزمن يقوم فيها بأعمال مختلفة إلى أن يفى بالثمن المطلوب منه[1].

*** الطلاق عند الشعوب البدائية[2]:**

تختلف القبائل والجماعات البدائية فى مدى حرية الزوجين فى أمر الطلاق، فبعضها يعطى كُلا من الزوج والزوجة الحرية التامة فى طلب الطلاق، كما هو الحال عند بعض قبائل «الإسكيمو» وبعض القبائل الإفريقية والآسيوية والأمريكية.

وهناك قبائل لا تسمح بالطلاق إلا إذا اتفق الزوجان على ذلك، كما هو الحال عند بعض قبائل «سومطرة». ولا يستطيع الرجل فى بعض القبائل بأستراليا أن يطلق زوجته إلا بعد موافقة كبار أسرتها، وموافقة أصحاب الرأى فى أسرته... أما الزوجة فليس لها من حرية طلب الطلاق إلا قليلاً، وربما لا يكون لها شىء من ذلك البتة، وإن كان من حقها أن تشكو من سوء معاملة زوجها إلى زعيم القبيلة، وقد يأمر الزعيم بنفيه من القرية فترة من الزمن إذا رأى أنه يستحق هذا العقاب.

---

(١) يرى بعض العلماء أن زواج المؤاجرة هو الطريقة الأصلية للحصول على الزوجة.

(٢) عادات الزواج وشعائره : أحمد الشنتناوى (بتصرف).

وليس من شك أن الرجل فى الجماعة البدائية يفكر طويلا قبل أن يقدم على الطلاق؛ لأنه إذا طلق زوجته فإنه سيفقد بذلك الثمن الذى دفعه للحصول عليها، أو الجهد الذى بذله فى خدمة أسرتها إذا كان فقيرًا لم يستطع دفع ثمن زوجته.

ومن العجيب أن بعض القبائل البدائية لا تسمح بالطلاق لأى سبب من الأسباب، كما هو الحال عند قبائل «الڤيدا» بسيلان، وقبائل «الپاپوا» فى جزيرة غينيا الجديدة، فالموت وحده عند مثل هذ القبائل هو الذى يفرق بين الزوج وزوجته... ومع أن رابطة الزواج تنفصم بسرعة لدى الشعوب البدائية لأتفه الأسباب، فإن هذه الشعوب قد جرت على عادات ونظم خاصة بالزوجة المطلقة وأولادها، تدل على حُسن تقدير للأمور، ووزن المسائل بميزان العدل والإنصاف، فالزوجة المطلقة عندهم لا تُترك شريدة وحيدة فى القبيلة إلا إذا كانت سيئة الخُلق والطباع لدرجة تجعل أسرتها وعشيرتها تتبرأ منها.

وقد جرت العادة بأن تعود المرأة المطلقة إلى أسرتها وعشيرتها للعيش بينهم مرة أخرى إلى أن تتزوج مرة ثانية، وكثيرا ما توفق إلى ذلك... أما الأولاد فيقتسمهم الوالدان وفقًا للعرف والعادة الجارية عند القبيلة، فأحيانًا تأخذ الأم البنات، ويأخذ الأب البنين.

وإذا كان النظام الأمى[1] هو السائد، فإن الأبناء جميعًا فى هذه الحالة يتبعون أمهم، كما أنهم يبقون مع أبيهم إذا كان النظام الأبوى المعروف هو السائد. أما إذا كان أبناء الزوجة المطلقة صغارًا فقد جرت العادة على تركهم تحت رعاية الأم. وإذا كانت المرأة المطلقة هى المذنبة فإنها تدفع قدرًا من المال نظير كل ابن تحتضنه.

---

(١) الذى يرتكز محور السلطة فيه على الأم وحدها.

والزوجة المطلقة بسبب الزنى أو العقم عليها أن تعيد إلى الزوج المهر الذى دفعه للحصول عليها، وعليها أيضًا أن تنزل له عن جميع الهدايا التى أهديت إليها عند الزواج..

أما الزوج الذى يطلق زوجته بدون وجه حق، فعليه أن ينزل لزوجته عن المهر الذى دفعه إليها، كما عليه أن يترك الأبناء لها، وفى حالات قليلة يأخذ كل من الزوج والزوجة متاعه الخاص الذى كان له قبل الزواج، ثم يقتسمان معًا ما تجمع لهما من متاع بعد ذلك؛ ولذا يلاحظ أن الطلاق لدى الشعوب البدائية كان مقيدًا بشروط وقواعد معينة تنظم أمر الزوجين بعد الانفصال(١).

* * *

*** مظاهر القتال واستعداداته لدى البدائيين:**

قبل أن يستقر الرأى على غزو عشيرة ما يعكف أفراد العشيرة المهاجمة قبل أن ينفروا للقتال على القيام ببعض طقوس واستعدادات تقتضيها تقاليدهم فى هذه المناسبات، منها: أن يدق الرؤساء طبول الحرب، ويطلقون فى الهواء دخانًا خاصا فيجتمع المقاتلون من كل مكان بعد أن يكون كل منهم قد أعد عدته، فحمل أسلحته وذخائره، ولبس ملابس القتال، وقلنسوته المزينة بريش النسور، وغطى وجهه بقناع الحرب(٢)... ثم يأخذ كل منهم مكانه فى حلقة الرقص... فيلتف المحاربون حول موقد ملتهب الجمر، وينحنون نحوه ثم ينتصبون(٣) مرددين فى أثناء ذلك هذه العبارة: «إن النار مجردة من الرحمة

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) كان هذا القناع عند هنود الأودية والسهول يغطى جميع أجزاء الوجه، ما عدا الجبهة والعينين، ويدهن بصبغة حمراء قانية.. وكان بعض عشائر الهنود الحمر يدهنون وجوههم بهذه الصبغة، وإلى هذا يرجع السبب فى وصفهم «بالحمر» مع أن لون بشرتهم الطبيعية لم يكن فيها من الحمرة شىء.

(٣) كما يفعل بعض رجال الطرق الصوفية فى أذكارهم فى عصرنا الحالى.

والشفقة، وسنكون نحن مثلها حيال أعدائنا»... ثم يقبض رئيس العشيرة قبضة من تراب ويمسح بها خدود رجاله مبتهلاً إلى الأصل الأول الذى انحدرت منه العشيرة ـ وهو الجاموس الوحشى ـ أن يجعل التوفيق رائدهم فى حربهم... وفى تعفير وجوههم بالتراب تمثيل لحالة الجاموس الوحشى عند محاولته الهجوم على عدوه، إذ يحفر حنيئذ الأرض بأظلافه وقرونه ويثير نقعها على وجهه ثم ينقض انقضاض الصاعقة على عدوه.

وبعد أن يفرغوا من هذه الطقوس يتناول كل محارب من مخلاته قطعة من الفحم، ويخط بها على جسمه علاماته الخاصة به، وفق ما تعارفت عليه عشيرته فى طرق التمييز بين الأفراد.

ثم يتجمعون مرة ثانية فى حلقة كبيرة يدورون حول محيطها فى حركات انجذاب عنيفة مرتلين فى أثناء ذلك غناءً خاصا بهم.

ثم يصدر الرئيس أمره بالنفير، فيتحرك الجيش شطر العشيرة التى استقر الرأى على مهاجمتها. وذلك من خلال صفارة[1] يحملها الرئيس على صدره ينفخ فيها نفخات خاصة ترمز إلى أوامر وتعليمات، حيث هناك صوت خاص للهجوم، وصوت آخر للانسحاب... وهلم جرا.

وأحيانًا يستخدمون الأعلام وأغصان الأشجار.. فنشر العلم الأحمر يعنى الشروع فى القتال، ونشر العلم الأبيض أو التلويح بغصن أخضر يعنى طلب الهدنة أو وقف القتال[2].

وفى أثناء الاشتباك يصيحون صيحة الحرب... وهى صيحة حادة مؤثرة، وتستغرق وقتًا طويلاً، وتُصْحَب بدقات سريعة متتابعة تنبعث عن التصفيق بالأكف، أو تحريك الأصابع على الشفتين.

---

(١) الصفارة تتخذ من عظام الديك، وخاصة عظام فخذه.

(٢) يلاحظ أن هذه التقاليد البدائية قد تركت رواسب فى جميع الأمم المتحضرة حاليًا، كالرايات البيضاء التى تعنى السلام، وما شابه ذلك.

أما طُرق الكرَّ والهجوم والالتحام فلم يكن فيها ما يختلف كثيرًا عن نظائره فى الأمم التى تعتمد فى حروبها على الخيول وفنون الفروسية.

وكان بعض العشائر يستخدم فى القتال وسائل المراوغة والخداع لمفاجأة العدو وأخذه على حين غرة منه، مثل: إخفاء رجالها ثم إظهارهم فى غير مظهرهم الآدمى، كما كانوا يفعلون فى الصيد والقنص...

فمن ذلك مثلا: أن عشائر «الآباش» كان يتجمع محاربوها أحيانًا فى أطراف غابة قريبة من مساكن العشيرة التى يبغون قتالها... وفى يد كل منهم فرع غليظ طويل يختفى وراءه، ويتقدم به فى حركة وئيدة متقطعة يُخيل للناظر إليها أنها حركة أغصان ثابتة يداعبها الهواء.

ومن ذلك أيضًا ما كانت تلجأ إليه أحيانًا عشائر «الكومانش» لمفاجأة أعدائهم بالهجوم، فقد كانوا يستخدمون خيولاً غير مسرجة، ويمد كل منهم جسمه بجانب صفحة فرسه، مطوقًا رقبته بذراعيه، ومعتمدًا بإحدى قدميه على مؤخرة ظهره، وفى منطقته السفلى قوسه وجعبة سهامه، ثم يطلقون هذه الخيول شطر العشيرة التى يريدون غزوها، فيخيل لمن يراها على هذه الصورة أنه ليس على ظهورها رجال ولا سروج، وأنها قطيع من الخيول الوحشية ترتع وحدها فى السهول... ويظلون كذلك حتى يشرفوا على منازل أعدائهم، فيستديروا مرة واحدة من صفحات خيولهم إلى ظهورها، كأنهم مَرَدَةٌ من الجن قد انشقت عنهم الأرض.

ومن ذلك أيضًا ما كانت تلجأ إليه العشائر المهاجمة من المفاجأة، حيث كانت تنتظر حتى ينقضى شطر كبير من الليل يكون فيه أفراد العشيرة المقصودة فى سُبات عميق، فيمتطى كل محارب منهم صهوة جواده، وفى يده حربته وهراوته، وغير ذلك من أمتعة القتال، ثم بعدها يكونون فى العشيرة التى يبغون سلبها، فينتشرون فى مختلف دروبها وهم يصيحون صيحات مزعجة،

حتى يتمكنوا من الوصول إلى هدفهم بالحصول على الغنائم التى يَئُوبون بها إلى ديارهم.

والقاعدة الغالبة عند معظم عشائر الهنود الحمر أن يعاملوا أسرى الحرب معاملة إنسانية رقيقة... ولا يوجد استثناء لهذه القاعدة إلا عند عشائر «الآباش»... فقد جرت عادة هؤلاء أن يقطعوا أصابع أسراهم وهم أحياء، ويتخذوا من هذ الأصابع أساور وقلائد يتحلى بها الرجال للزينة والزهو، ولتكون دليلاً على شجاعتهم، وكثرة من وقع فى أيديهم وأذلوه منْ أسارى الحرب، فضلاً عن ذلك أنهم كانوا يسومون أسراهم صنوفاً أخرى من العذاب، ويعهد بذلك للنساء، فكُنَّ يُؤَدِّينَه على أعنف وجه وأشد قسوة[1].

* * *

*** لغة الإشارة عند البدائيين:**

يذكر العلماء المتخصصون بالشعوب البدائية أن الأمم البدائية لا تكاد تستخدم فى تعبيرها غير الإشارات اليدوية والجسمية، ومن هؤلاء بعض قبائل السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا، وبعض العشائر بإفريقيا الوسطى.. ويطلق على هذا النوع من التعبير «لغة الإشارات»... وعنى بدراستها علماء الأنثروبولوچيا والاجتماع[2].

وقد صور الدكتور «فيشر» هذا النوع من اللغات وقربه إلى الأذهان إذ يقول: «إذا التقيتُ بأحد الهنود الحمر وأردتُ أن أخاطبه بلغة الإشارات لأسأله: هل رأى ست عربات يجرها ثيران، ويصحبها ستة سائقين، منهم ثلاثة مكسيكيون وثلاثة أمريكيون، ويسير معهم واحد ممتط صَهْوَة جواده.

---

(١) الهنود الحمر: د. على عبد الواحد وافى (بتصرف).

(٢) من أشهرهم تيلور، وليفى برول، وسبنسر، وجيلين، وفيشر، وروث وغيرهم.

. . . فإننى أشير إلى شخصه بيدى للدلاله على كلمة أنت، ثم أشير إلى عينيه للدلالة على فعل الرؤية، ثم أبسط أصابع يدى اليمنى وسبابة يدى اليسرى للدلالة على عدد ستة، ثم أمثل صورة دائرة بإلصاق نهايتى السبابتين والإبهامين، وأمد يدىَّ إلى الأمام وأحركهما كما تتحرك عجلات العربة وهى تسير للدلالة على العربة. . . وهكذا حتى أستوضح منه ما أريد.

ويقرر «تيلور» ـ بصدد هذه اللغة ـ أن لها قواعد إشارية لربط أجزاء العبارة بعضها ببعض، وترتيب عناصرها، وأنها فى مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التى تستخدمها، فهى من هذه الناحية أشبه شىء بلغة دولية(١).

* * *

(١) المرجع السابق.

obeikandl.com

• تغلغل الأرواح فى كل الموجودات :

ينتشر هذا الاعتقاد بين عدد كبير من الشعوب البدائية[١]. فالرجل البدائى يعتقد فى تقمص الأرواح لكل قوى الطبيعة ومظاهر الكون، وعلى ذلك فالظواهر والقوى الكونية كائنات لها ذاتيتها، ولها شخصيتها، ولها حياتها، شأنها فى ذلك شأن الإنسان سواءً بسواء؛ لأن الأرواح تملأ كل شىء، وتسكن فى كل شىء، بما فى ذلك الأشياء التى نعدها نحن أجسامًا جامدة، ويترتب على ذلك كثير من التصرفات ومظاهر السلوك، التى قد تبدو غريبة فى نظرنا الآن.

فالرجل البدائى مثلاً يعتقد أن الحيوانات والجمادات مسئولة تمامًا عمَّا قد يصدر عنها، ويعاملها على هذا الأساس، كما لو كانت كائنات حية عاقلة؛ لذا فإنهم يطبقون عليها مثلا قانون الثأر. فإذا افترس نمر أو أسد رجلاً على سبيل المثال، فإنهم يأخذون بثأره بأن يقتلوا فى مقابله أحد النمور أو الأسود ويأكلون لحمه. . . وإذا سقطت شجرة على رجل فقتلته فإنهم يقطعون هذه الشجرة ثم يمزقونها إلى قطع صغيرة، انتقامًا منها مما فعلته، أو قد يحرقونها حية جزاء ما فعلت، وهكذا[٢].

---

(١) علماء الأنثروبولوچيا يُطلقون على ذلك كلمة «أنيميزم» أو المبدأ الحيوى أو حيوية الطبيعة.

(٢) زمن الحلم الأبدى: د. أحمد أبو زيد (دراسة بمجلة الكويت ـ يونيو ١٩٨٨) بتصرف.

كما يعتقدون أن الكائنات الروحية قد تتجسم فى شكل صخور وأحجار ضخمة، أو فى شكل ينابيع ماء، ولكنها فى كل الأحوال تظل محتفظة بقدرتها وفاعليتها وتأثيرها التى تنتقل إلى تلك التشكيلات الجديدة، وتضفى عليها بذلك نوعًا من الرهبة والقداسة؛ ولذا فإنهم يقدسونها، فيمارسون حولها كثيرًا من الطقوس والشعائر، باعتبارها كائنات روحية تأثيرها لا يضعف أو ينقص برغم مرور الزمن(١).

* **الشورينجا:**

ومن أهم تلك الأشياء المقدسة التى تشير إلى هذه الكائنات الروحية الأسطورية، وإلى قواها الخالقة المبدعة، بعض الألواح الحجرية الصلبة ذات الشكل البيضاوى ـ فى الأغلب ـ والتى تظهر عليها بعض النقوش المحفورة والرسوم المقدسة.

وتُعْرَف هذه الألواح عمومًا باسم «الشورينجا Churinga»، وهى كلمة تعنى الروح(٢).

وترتبط كل «شورينجا» بقبيلة أو عشيرة أو جماعة معينة، وهكذا ترتبط القبائل الأسترالية بالكائنات الروحية الأسطورية المختلفة، وتستمد منها قوتها، مثلما استمدت منها وجودها فى الأصل والبداية. والأكثر من ذلك أن كل فرد فى القبيلة يرتبط منذ مولده «بشورينجا» معينة، وإن كانت هذه «الشورينجا» الخاصة به وبقبيلته، لا تقدم إليه إلا أثناء الاحتفالات التى تُقام ابتهاجًا ببلوغه مبلغ الرجال، وتكريسه فى زمرة الأبطال المحاربين الذين يتولون أمر الدفاع عن القبيلة والإغارة على القبائل الأخرى المعادية.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) وذلك فى لغات كثير من قبائل أستراليا، ولهذه الكلمة دلالتها الواضحة؛ لأنها ترمز إلى قوى تلك الكائنات الأسطورية التى تحل فيها.

ويحتفظ الفرد بهذه «الشورينجا» طيلة حياته، ويحملها معه كل الوقت؛ لأنها رمز لانتمائه إلى عشيرته وقبيلته، ولأنها تحفظه من كل سوء، فهى التى تربطه بذلك الكائن الروحى الأسطورى المعين، الذى يستمد منه هويته وذاتيته، وشخصيته الاجتماعية، بل وكل خصائصه ومقوماته الذاتية الفردية[1]. . . وحين يموت تدفن «الشورينجا» معه، ولكن كثيراً ما يحتفظ الأحياء من أعضاء العشيرة بها بدلا من دفنها؛ لأنها موطن روح ذلك الشخص، وهم بذلك يرمزون إلى اعتزازهم به حتى بعد وفاته، ولكنهم لا يستخدمونها إلا فى المناسبات والحفلات الشعائرية المهمة، حتى يكون حاضراً بينهم بروحه.

ويحرم على النساء لمس تلك «الشورينجا» أو الاقتراب منها لقداستها، فهى محرمة عليهن، شأنها فى ذلك شأن كثير من الأشياء المقدسة الأخرى التى يعدونها «تابو»[2]. وأن الخروج على ذلك المبدأ يلحق الأذى بالشخص المعتدى؛ لأن فيه خروجًا على القانون الأخلاقى والتقاليد الدينية والاجتماعية.

«فالشورينجا» ـ برسومها ونقوشها هى تحولات للكائنات الأسطورية، أو تجسيدات لها تحل فيها أرواحها وقواها، ومن هنا تستمد قداستها.

. . . ويعتقد الأستراليون الأصليون أن تلك النقوش المحفورة على «الشورينجا» هى خرائط ورسوم ورموز تبين الموطن الأصلى الذى ارتبطت به هذه الكائنات فى زمن الحلم الأبدى، أو فجر العالم.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) التابو هو تحريم لمس الأشياء التى تعتبر مقدسة فى نظر القبيلة أو العشيرة.

ثم إنها بعد ذلك رموز تشير إلى ارتباط الفرد بكل إسلافه منذ زمن الحلم عن طريق «الشورينجا» التى تتجسد فيها تلك الكائنات الروحية الخالقة المبدعة..

كما أنها تبين فى الوقت ذاته موقف ذلك الشخص من كل الجماعات الأخرى التى ترتبط بأنواع مختلفة من «الشورينجا»، وتتأثر بالتالى بقوى روحية مختلفة أيضاً. فالشورينجا إذن رمز للقدم، كما أنها دليل خلود الفرد حتى بعد موته، وعلامة على استمرار الحياة وخلود الإنسان، برغم كل مظاهر الموت الطبيعى.

والإنسان فى نظر البدائيين ـ ومنهم أهالى أستراليا الأصليين ـ لا يعيش فى عزلة عن بقية الكائنات والموجودات، سواء كانت حيوانية أو نباتية أو غير ذلك، بل إن هذه الروابط تقوم أيضًا بين الأحياء والأموات، وبين هذا العالم المادى المحسوس وعالم الغيب.

كل هذا معناه فى آخر الأمر أن هذه الكائنات الروحية الأسطورية لا تزال حية برغم كل تلك الفترات الطويلة جداً من الزمن، وبرغم مرور العصور والقرون، كما أنها لا تزال حتى الآن قادرة على أن تحل فى كل شىء، وتتغلغل فيه، فتمنحه الروح والحياة[1].

وكل هذه الأفكار والمبادئ تعبر عن موقف محدد من الكون والقوى العليا الخفية التى أبدعته وتتحكم فيه وتوجهه، وهو موقف ينطوى على الشعور بالرهبة والقداسة أمام هذه القوى الخارقة التى يتصورها من ناحية، وبين ضآلته كإنسان جزء من هذا الكون ذاته، أو هو الكون ذاته، ولكنه فى صورة مصغرة[2].

* * *

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) المرجع السابق (بتصرف).

• للهدية رموز وطقوس:

كان الإنسان البدائى يعتقد أن الشىء المُعْطَى كائن حى له روح، وفيه تكمن قوة تحركه وترتبط بصاحب الهدية، فإذا أعطاه إلى شخص آخر فإن الروح الكائنة فيه تضمن رجوعها إليه بعدئذ، أو رجوع ما يعادلها من قيمة... وهذا هو الضمان الأول برجوع الهدية بما يقابلها أو يعادلها على الأقل[1]. إذن فالهدية ـ فى معتقد الإنسان القديم ـ تمتلك روحًا مؤثرة، فهى ليست شيئًا جامدًا أو تافهًا. فالعطاء دليل التقرب إلى الشخص المعطى... ووجوب العطاء الذى هو دليل المحبة يستوجب قبول الشىء المقدم مهما كان صغيرًا؛ لأن العبرة فى القصد والنية والواجدان. وقبول الهدية تعبير عن قبول المحبة والمحالفة، والامتناع عن الأخذ معناه رفض المحبة والمحالفة، وهو فى حكم إعلان الحرب الخاصة أو العامة، أو بمثابة الجبن والبخل.

والقرابين التى كان يقدمها الإنسان القديم للآلهة كانت أشبه بالهدية لوجه الآلهة والطبيعة، وكان إتلاف الشىء وإهداره يعنى الحصول على الأمن

(١) إذا كانت عقيدة الإنسان البدائى خاطئة بالطبع، فإن شعور الإنسان المعاصر يؤيد بصورة غير مباشرة هذا الاتجاه؛ لأنه يتوقع من الهدية أن تحدث مفعولاً فى الجانب المقابل المهداة له، وهذا التأثير النفسى لا يمكن أن نجرده من المعنى البدائى، وهو امتلاك الهدية للروح أو للتأثير. إن وجوب العطاء إذن يحتم وجوب الرد، فالعطاء دليل التقرب إلى الشخص المعطى باعتباره متداخلاً فى صاحبه الأول ومتكاملاً معه.

والسلام. . وكأن فى تلك الأشياء أرواحًا حية ذات تأثير على حياة الإنسان، فالقرابين تبعد الأرواح الشريرة والسوء بصورة عامة، وتمنع لعنة الناس، وتصد حلول المصائب على صاحب القربان.

وللتأكيد على روحية الأشياء المهداة، فإن بعض القبائل ـ وخاصة قبائل «الماووري» البدائية ـ تعتقد أنها إذا احتفظت بهذه العطية بدون رد هدية بالمقابل يمكن أن يصيبهم منها شر خطير يصل إلى حد الموت. . . ويعنى ذلك أيضًا أن الشيء المأخوذ ليس جامدًا، فالهدية تتبع معطيها على الرغم من تخليه عنها، ويظل لصاحبها حق على المرسلة إليه والمنتفع بها. .

كما أن تناوب وتسلسل تبادل الهدايا فى الحفلات والمناسبات يصبح المحور الأساسى المتحكم فى الدورة الإلزامية للثروات والتعويضات والهبات بين الناس، كما هى الحال بين قبائل «الساموا samoa » ونيوزيلنده Newzealand . . وقد بلغ معنى الالتزام والشرف والطقوس الدينية أوجه فى عهد السومريين والبابليين والفراعنة والهنود القدامى.

كما اتخذت الهدية شكل التعاقد المنسق. . . ففى قبيلة «بولينيزيا» يوجد ثلاثة التزامات هى:

(أ) لزوم قبول الهدية أو القيام بكرم الضيافة؛ لأنهم ليسوا أحرارًا فى الامتناع عنها، وليسوا أحرارًا فى رفضها. فكلمة «تاهو Tahu» ترمز للطعام بصفة عامة، وتعنى أيضاً «عدم احتقار الغذاء لمن يرفض الطعام المقدم له.

(ب) لزوم العطاء، فالامتناع عن العطاء وإهمال الاستضافة يعد فى حكم الرفض أو النفور، وهو ما يعادل إعلان الحرب باعتباره رفضًا للمشاركة والتحالف.

(جـ) لزوم رد الهدايا ضمانًا لاستمرارية الروح الكامنة فى الأشياء.

هذا، ويتم تبادل الهدايا والهبات بين الأسر والعشائر والقبائل فى عدة مناسبات، مثل: الولادة، والختان، والمرض، وبلوغ الفتاة سن الرشد، وكذا مناسبات العزاء والمصائب.... ثم تطور شكل الهدايا إلى مفاهيم السخاء والكرم والشرف والمكانة، كما يجرى فى «كاليدونيا الجديدة» أثناء حفلات «البيلو ـ البيلو»، وبين قبائل جزر «التروبرياند» أثناء حفلة «الكولا Kola».

كما أن أخلاقية الهدية أدت إلى ترسيخ تلك المفاهيم والقيم المشتقة من معنى الشرف والكرامة، وتأثيره كضمان قوى لرد ما قدم من هبات، إلى جانب قوة الأشياء الروحية؛ ولذلك ظهرت العقوبات الاجتماعية لمن لا عهد له، ولا يقوم بالوفاء بديونه من الهدايا، والتى تحددت فى واجبات ثلاثة هى: العطاء، والأخذ، والرد(١).

* نظم اجتماعية وعقائدية في مجتمعات قديمة:

* من العادات الشائعة بين القبائل البدائية التى تقيم فى أعالى «نهر الأمازون» أن الفرد منهم إذا اضطر إلى الجرى مدة طويلة، توقف مرات وجلس القرفصاء بعض الوقت لا ليفكر فى شىء، ولا ليستريح، وإنما لينتظر وصول «روحه» إليه، اعتقادًا بأنهم حين يجرون تتخلف عنهم أرواحهم، فهم يتريثون لتصل إليهم(٢).

* * *

(١) الهدية: د. فخرى الدباغ (مجلة العربى العدد ٢٧٩) بتصرف.

(٢) وقد علق أحد الكتاب على هذه العادة فقال: «ما أحوج العالم اليوم إلى محاكاة هؤلاء البدائيين، فكلما قطع شوطاً فى مجال التقدم المادى تريث قليلاً حتى يبلغ تقدمه الروحى ما بلغه التقدم المادى»!.

* كانت بعض القبائل البدائية فى جزر المحيط الهادى تكلف النساء وحدهن حصد الزرع؛ لاعتقاد هذه القبائل أن المرأة هى مصدر الخصب فى الوجود.

ومن هنا يجىء المحصول وفيراً إذا هى قامت بعملية الحصاد!

* * *

يقضى العرف عند بعض طوائف الهنود الحمر ألاَّ يُعْدَمَ أو يُسْجَن من تثبت عليه تهمة القتل، وإنما توقع عليه الجزاءات التالية خلال أربع سنوات:

أولا: لا يسمح له طوال هذه المدة أن ينتعل شيئًا فى قدميه، أو يأكل طعامًا دافئًا مهما كانت الظروف.

ثانيًا: لا يسمح له بالاستحمام أو قص شعره أو تمشيطه خلال السنوات الأربع.

ثالثا: يقيم على بُعد لا يقل عن ميل من موضع إقامة قبيلته!

* * *

يعتقد كثير من «الإسكيمو» أن الأرواح ماثلة فى كل شىء... وأن كل الأحداث خيرها وشرها مُسَبَّبَة بفعل الأرواح... وأن الأرواح يمكن السيطرة عليها من قبل الكاهن أو «الشامان» وهو من قبيل الساحر، كما أنه مطبب.

وعندما يصبح «الإسكيمو» كهولاً وعبئاً على القبيلة، فقد جرت العادة فى بعض المناطق على وضعهم بداخل أكواخهم المقببة وسدها عليهم بإحكام، وتركهم يموتون هكذا.

وفى مناطق أخرى يجرى لف الموتى بجلود «الفقمة»[1] ودفنهم تحت كوم خفيف من الأحجار أو تركهم على الأرض العارية... وتوضع أدوات وأسلحة الميت بجواره.

... والإسكيمو يعتقدون أن الرجل الأبيض هو أحقر الأجناس. وعندما ينبذون الكسالى يطلقون عليهم على سبيل الزراية والتحقير اسم «الرجال البيض».

* يرى أهل الصين[2].. أن العيون الضيقة من مقاييس الجمال... وهم لا يفضلون البشرة البيضاء ولا الأسنان الناصعة البياض فيشبهونها بأنها كأسنان الكلب.

* * *

*** غرائب الأضحية والقرابين:**

اختلفت الضحايا والقرابين فيما يتعلق بأساليب تقديمها، كما اختلفت فيما يتعلق بنوعها... غير أن أشهر هذه الأساليب وأكثرها انتشاراً فى الأمم القديمة هو تقديم الضحية إلى الآلهة بإلقائها جميعها أو بعض أجزائها فى النار، وانتشار الدخان المنبعث من حرقها فى أرجاء المذابح والهياكل المقدسة، وتصاعد رائحتها التى تعجب الآلهة، كما يذكر العهد القديم[3].

---

(١) الفقمة: حيوان بحرى يعيش فى المناطق الشمالية الباردة ويطلق عليه «عجل البحر».

(٢) يقال إنهم لا يتورعون عن ارتكاب جريمة قتل إذا رأى أحدهم زوجته تراقص رجلاً أبيض.

(٣) كما تنص على ذلك الإصحاحات: الأول، والثانى، والسادس، والسابع، وغيرها من سفر اللاويين الذى جاء معظم فقراته وقفا على بيان أنواع الضحايا، وأحكامها، وأوقاتها، وكيفية تقديمها.

ومن طرق التقديم الاكتفاء بالذبح وإراقة الدماء[1]، أو طريقة الوأد، وهى دفن الضحية حية[2]، أو طريقة إغراق الضحية فى الأنهار المقدسة[3]، أو طريقة خنقها، أو طريقة سد فمها بالطين، أو طريقة إلقائها من مكان شاهق، وغير ذلك من طرق.

أما المتقرب إليهم بالأضحية والقرابين فهم:

* الآلهة: على اختلاف أنواعها، وأشدها رغبة فى القرابين النار عند المجوس، والكواكب والأنهار عند عابديها.

* أرواح الموتى: وهى التقرب للموتى بالأضحيات ابتغاء مرضاتهم، وخشية غضبهم على الأحياء، وهذه عادة انتشرت لدى قدماء المصريين.

* الملوك والزعماء الدينيون: وقد سادت عادة التقرب إليهم بالأضحية فى كثير من الشعوب البدائية على وجه الخصوص.

وقد ساد اعتقاد لدى بعض الأمم القديمة أن الآلهة تنتفع فى غذائها بلحوم الأضحية؛ ولذلك فقد حرمت هذه الأمم أكل الناس منها.

ووصمت بعض الأمم آلهتها بصفات القسوة وحب الدماء، والتلذذ بمنظر إزهاق الروح، فكانوا يقدمون إليها الضحايا تهدئة لهذه الميول الدموية، واتقاء شرها، وتأمينًا على حياة الناس.

وجدير بالذكر أن الإسلام قد قضى على جميع هذه الأساطير والخرافات، وجعل الأضحية مظهرًا من مظاهر تقوى الله وشكره وامتثال أمره.

هذا، ومن أغرب أنواع الأضحية أن يكون الضحية آدميا، وأن يضحى الرجل بأولاده!

---

(١) وهى طريقة أقرها الإسلام فى أضحية العيد، وفى هدى الحج.

(٢) وهى طريقة كانت فى الجاهلية قبل الإسلام الذى حاربها.

(٣) وهى عادة كانت لدى قدماء المصريين.

«وقد انتشرت هذه العبادة الدموية لدى شعوب كثيرة بدائية. . . فقد كانت عشائر الهنود الحمر يقدمون الأضاحى الإنسانية لآلهة النبات؛ ليشبعوا نهمها لتبارك الأرض، وتعمل على غزارة إنتاجها من الغلات.

. . . وعند قبائل «الأزتك» وهم السكان الأصليون للمكسيك كانت تقدم الضحايا الإنسانية بوفرة، وفى مناسبات كثيرة، حتى لقد بلغ ما يقدم منها لديهم زهاء خمسين ألفًا كل عام. .

وكان معظم هذه الضحايا يقدم لنبات الذرة الذى يتألف منه غذاؤهم الرئيسى بعد أن يهشم جسم كل ضحية منها بحجرين ثقيلين يصوبان ضرباتهما المتتالية السريعة إلى ظهر الضحية وصدرها.

وقد جرت العادة لديهم أن تكون الضحية فى مرحلة من العمر تشبه مرحلة نبات الذرة فى الوقت الذى تقدم فيه، فتكون وليدًا عقب ظهور النبات، ورجلاً بعد تمام نموه، وطفلاً أو مراهقًا أو شابا فيما بين ذلك . . . ويعتقدون أن هذا التناسب بين سن الضحية والمرحلة التى يجتازها النبات يجعل لها أكبر الأثر فى نموه وغزارة محصوله[1].

وانتشر هذا النظام كذلك بين كثير من السكان الأصليين لإفريقيا الوسطى وغربى إفريقيا. . . وكانت الأضحية البشرية فى هذه المناطق تقدم فى الغالب من البنات العذارى اللاتى كن يربين لهذا الغرض فى منازل الملوك والرؤساء، ويتعهدهن رجال الدين، ويتولون تقديمهن للآلهة.

«وانتشر هذا النظام لدى كثير من قبائل الهند بغرض التأثير فى نمو النبات وغزارة الغلات، حيث كان يُدَسُّ السم للضحايا وتوارى جثثها فى أراضى

---

(١) غرائب النظم والتقاليد والعادات: د. على عبد والواحد وافى (بتصرف).

الحقول، كما لدى قبائل «شان» و«ناجاس»... أو كانت تتصيد ضحاياها صيدًا من بين عابرى السبيل، كما هو الحال فى قبائل «أوجامى».. أو تشترى ضحاياها من الرقيق، وتتعهدها بالتغذية حتى تسمن لتقر بها عين الآلهة وتشبع نهمها ثم تقدمها لها»(١).

... وانتشر هذا النظام عند قدماء المصريين حيث كانوا يقدمون ضحايا بشرية لآلهة النبات ليجود محصول الأرض. كما كانوا يقدمون بنتا عذراء للنيل الذى كان من أكبر آلهتهم، فيقذفون بها إليه؛ ليغمر البلاد بخيره وفيضانه... وكانت الضحية تختار عادة من بين أسرات الأشراف حتى يتناسب مقامها مع مقام الإله المقدمة له(٢).

وقد ترك هذا التقليد فى مصر رواسب كثيرة تتمثل فيما كانوا يسمونه «عروس النيل»... وهى تمثال بنت يُقذف به فى النيل فى أثناء فيضانه رمزًا للأضحية الأولى التى كانت تقدم إليه من العذارى... وظل هذا التقليد الرمزى معمولاً به إلى عهد قريب.

.... وانتشر هذا النظام كذلك انتشارًا كبيرًا عند قدامى اليونان، وكان معظم ضحاياهم البشرية تقدم لكبير آلهتهم «زيوس» وكانوا يقدمونها فى مناسبات دينية ودنيوية كثيرة.... وكان يكثر تقديمها فى إبان المجاعات والقحط والحروب، وانتشار الكوارث والأوبئة، وما إلى ذلك لاسترضاء الإله واستدرار عطفه ورحمته، وكانت تختار من بين أفراد الأسرات الأرستقراطية... أما فى مناسبات المجاعات وما إليها فكانت تختار فى الغالب من بين الأطفال الصغار.

---

(١) المرجع السابق (بتصرف).

(٢) يقال إن هذا التقليد قد ظل متبعًا لدى المصرين حتى أبطله عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إذ أمر بالإقلاع عنه.

كما ظل هذا النظام سائدًا عند قدامى الرومان حتى قبيل الميلاد، حتى أصدر مجلس الشيوخ الرومانى مرسومًا يحرم تقديم الضحايا من الآدميين.

وتدل بعض القصص التى تروى عن عرب الجاهلية أن هذا النظام كان سائدًا لديهم كذلك، وأنه ظل متبعًا حتى قبيل الإسلام(١).

*** وأد البنات نوع من التضحية بالأولاد:**

انتشرت عادة وأد البنات لدى العرب فى الجاهلية. وكانت الطريقة السائدة فى الوأد أن تحفر بجانب الموضع الذى اختير لولادة الأم حفرة عميقة، فإذا ظهر أن المولود أنثى قذف بها حية عقب ولادتها مباشرة فى هذه الحفرة، وهيل عليها التراب.

وكانت بعض عشائر قريش وغيرها من القبائل تلجأ إلى وأد البنات فى أمكنة خاصة بعيدة عن المنازل حتى لا تدنس بجثثهن ورفاتهن. وأشهر مكان كانت قريش تدفن فيه البنات على هذه الطريقة هو جبل أبى دلامة.

وقد ظل هذا النظام متبعًا عند العرب حتى قبيل الإسلام الذى شن حملة على تلك العادة الشنيعة حتى أبطلها.

ومما هو جدير بالذكر أن طائفة من عشائر العرب كانت تلجأ إلى قتل أولادها تحت تأثير الفقر والخوف من تكاليف تربيتهم لا تفرق فى ذلك بين ذكر وأنثى حتى جاء الإسلام الذى أمر بعدم قتلهم من فقر وإملاق، كما جاء فى قوله تعالى:

﴿. . . وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾(٢).

---

(١) من ذلك ما ينسب إلى عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد روى أنه لما لقى العنت عند حفره لزمزم، إذ لم يكن معه من يساعده غير ابنه الحارث، نَذَر لئن وُلد له عشرة بنين وبلغوا معه حتى يمنعوه ويغنوه عن معونة الناس لينحرن أحدهم ويقدمه أضحية للآلهة. . وكاد يفعل لولا أن منعته قريش من ذلك.

(٢) سورة الأنعام ـ من الآية: ١٥١.

• العقيدة الطوطمية[1]:

تقوم هذه العقيدة على اتخاذ عشيرة أو قبيلة حيواناً أو نباتاً رمزًا لها، ولقبًا لجميع أفرادها، وتعتقد أنها تؤلف معه وحدة اجتماعية، فتنزله منزلة التقديس، فإذا كان الذئب مثلاً طوطماً لعشيرة ما، فمعنى ذلك أن هذه العشيرة تتخذ هذا الحيوان رمزًا لها يميزها عما عداها من العشائر، ولقبًا يحمله جميع أفرادها للدلالة على انتمائهم إليه، وتعتقد أنها هى وفصيلة الذئاب من طبيعة واحدة . . . أى أنه يتألف من أفرادها ومن أفراد هذه الفصيلة الحيوانية ما يشبه الأسرة الواحدة[2].

وهذه العقيدة انتشرت بين السكان الأصليين لأمريكا من الهنود الحمر. . . كذلك وجد أن تلك العقيدة انتشرت بين السكان الأصليين لأستراليا، كما تبين أن لتلك العقيدة رواسب فى كثير من ديانات العالم القديم، وفى كثير من عادات شعوبه وتقاليدها.

وتتألف معظم الطواطم من فصائل حيوانية ونباتية، كفصائل الذئب، والثعلب، والنمر، والكنغر، وكفصائل شجر البلوط، والموز، والمطاط. . . الخ والطواطم الحيوانية أكثر عددًا وأوسع انتشارًا من الطواطم النباتية. وقليل

---

(١) الطوطمية مذهب دينى بدائى ينتشر بين قبائل الهنود الحمر بأمريكا الشمالية، ويؤلهون بعض الحيوانات «طوطيم» التى يعتقدون أنهم ينحدرون منها.

(٢) غرائب النظم والتقاليد والعادات: د. على عبد الواحد وافى (بتصرف).

من الطواطم يتمثل فى جماد أو نجم، أو مظهر من مظاهر الطبيعة، كالشمس، والقمر، والكواكب، والنار، والماء، والبحار.

ولكل عشيرة طوطمان: طوطمها الخاص بها... والطوطم العام الذى تشترك فيه مع عشائر اتحادها... وكما تقدس العشيرة طوطمها الخاص بها تقدس كذلك طوطمها الاتحادى العام. ويبدو تقديسها هذا فى مظاهر كثيرة، من أهمها أنه يحرم على جميع أفراد العشيرة أن يمسوا بسوء أى فرد من أفراد طوطمها الخاص أو العام، كما يحرم عليهم أن يأكلوا لحمه أو يدخلوا شيئًا من عناصره فى أجوافهم إلا فى بعض حالات حددتها التقاليد(١).

فمن ذلك أنه يُباح لأفراد العشيرة فى بعض المناسبات الدينية أن يطعموا من طوطمهم الخاص أو العام على أنه طعام ربانى مقدس... كما يباح ذلك عند الضرورة القصوى، أو إذا كان الطوطم لا تمكن الحياة بدونه، كالماء وما إليه. ويُباح قتل الطوطم فى حالة الدفاع المشروع عن النفس، واتقاء الأذى، وخاصة إذا كان الطوطم مفترسًا أو مؤذيًا بطبعه، كالنمر، والثعبان، وغيرهما(٢).

هذا، وترمز كل عشيرة طوطمية إلى طوطمها برمز خاص تصطلح عليه: فأحياناً يكون عبارة عن صورة الطوطم نفسه، وأحيانا يكون الرمز عبارة عن أشكال هندسية، أو مجموعة خطوط ليس فيها شىء من صورة الطوطم. وقد تستخدم بعض أجزاء الحيوان أو النبات نفسه للرمز إلى الطوطم. وأحيانًا يرمز إلى الطوطم بتشكيل الملابس أو الدروع، أو أدوات الحرب. وقد يرمز إلى الطوطم بعصًا أو مجموعة من العصى بعد أن تضاف إليها مواد أخرى.

---

(١) المرجع السابق. (بتصرف).

(٢) المرجع السابق. (بتصرف).

وتنزل كل عشيره الرمز الخاص بطوطمها منزلة التقديس، وتستخدمه فى مختلف طقوسها وشعائرها الدينية.

وتحفظ هذه الرموز فى مخابئ خاصة بعيدة عن الطرقات، وتُعَد هذه المخابئ وما يحيط بها مكانًا مقدساً لا يسمح بالطواف فيه، ولا بالقرب منه، إلا لمن تم تعميدهم وإلحاقهم بالمجمع الدينى. كما يعتبر حرمًا آمنًا لا يرتكب فيه منكر، ولا يُصاب المتلجئ إليه بسوء مهما عظمت جريرته، ويسرى هذا الحكم حتى على الحيوانات والطيور، فلا يصح صيد أى حيوان أو طائر فى هذا الحرم.

ولا يسمح بإخراج هذه الرموز من مخابئها إلا فى مناسبات دينية وحربية خاصة، أو فى حالة ما إذا قبلت العشيرة إعارتها مدة ما لعشيرة أخرى، فقد كان يجوز للعشائر أن تقترض هذه الرموز لتستمد منها القوة والعون.

وتعتقد العشيرة أن لهذه الرموز خواص عجيبة، من ذلك مثلاً أن يعتقد أن مجرد لمس الرمز يشفى من جميع الأمراض والجروح، وأن حملها أو مسح الجسم بها يهب الفرد قوة خارقة.

ويلقب أفراد العشيرة بالاسم الذى يطلق على طوطمها[1]، ويعتقد كل منهم أنه فرد من فصيلة هذا الطوطم، فالعشيرة التى تتخذ النمر طوطما لها مثلا يُلقب كل فرد من أفرادها بالاسم الذى يُطلق على النمر، ويعتقد أنه أحد أفراد هذه الفصيلة الحيوانية، ولكن هذا لا يجرده من طبيعته الإنسانية، فهو نمر وإنسان فى آن واحد!

ولما كان أفراد العشيرة مشتركين مع طوطمهم فى طبيعته، فهم كذلك يشتركون معه فى قدسيته، وهذه القدسية منتشرة فى جميع أجزاء الجسم

(١) كما يحمل كل منا لقب أسرته.

وعناصره، ومن أهمها دم الإنسان وشعره؛ ومن ثم كانت الدماء والشعر من أكثر عناصر الإنسان استخدامًا فى الطقوس والشعائر الدينية عند هذه العشائر.

وكما أن أجزاء جسم الإنسان ليست سواء فى مبلغ قدسيتها، فإن أفراد العشيرة أنفسهم ليسوا سواءً فى ذلك، فمبلغ القدسية فى الرجال يزيد كثيراً عن مبلغها فى النساء، بل إن النساء ليعتبرن من بعض الوجوه مجردات من القدسية إذا قِسْنَ بالرجال، وغيرُ المُعَمَّدِينَ من الذكور يعتبرون مجردين من القدسية، أو متحملين لها بالقوة لا بالفعل. وكبار العشيرة وشيوخها أكثر قدسية من غيرهم، حتى إنه ليباح لهم ما لا يباح لغيرهم حيال الطوطم ورموزه.

«وحيث إن النظام الطوطمى يجعل الإنسان نفسه من طبيعة طوطمه، ويضفى عليه قدسية هذا الطوطم، فالعلاقة بين أفراد العشيرة وفصيلة طوطمها ليست علاقة عباد بآلهة، بل علاقة أقرباء تربط بعضهم ببعض وشيجة الدم والنسب الوثيق»(١).

* * *

*** السحر فى القبائل الهمجية:**

لا تخلو قبيلة من القبائل الهمجية من طائفة السحرة، حيث الاعتقاد السائد أن للسحر قُوى فوق القوى الإنسانية، بها يستطيعون السيطرة والتحكم فى جميع القوى الطبيعية. وأن هؤلاء السحرة على اتصال وثيق بالأرواح المختلفة، الطيب منها والخبيث، كما أن لهم الغلبة والسلطان على جميع

(١) المرجع السابق.

الآلهة، فالساحر فى مرتبة أعلى من مرتبة الإلـه الذى تعتقد فيه القبيلة من هذه القبائل البدائية؛ ولذا وجد العداء بين الدين والسحر عند تلك القبائل بعد أن كانت وظيفة الكاهن والساحر متحدة لم يكن يفترق عمل الواحد منهما عن عمل الآخر، فالإنسان كان إذا أراد أن يصل إلى غرض من أغراض الدنيا أو الآخرة كان عليه أن يتودد إلى الآلهة والأرواح لاستدرار عطفها، ولم يكن ذلك إلا عن طريق الابتهال وتقديم القرابين إليها، وكان له فى الوقت ذاته أن يستعين ببعض الطقوس والاحتفالات، وتلاوة بعض الصيغ والعبارات التى كان يأمل من ورائها أن تتحقق له آماله بدون حاجة إلى معونة الآلهة والأرواح. . . أى أنه كان يقوم فى وقت واحد بشعائر دينية وأخرى سحرية بدون أن يجد فى مسلكه هذا أى شىء من التناقض ما دام همه الوصول إلى ما يريد.

وعلى هذا الأساس كان السحرة فى القبائل الهمجية هم فى الوقت ذاته كهنة هذه القبائل، أى القائمين على شئون الدين، فهم الذين يقربون القرابين للآلهة لطلب عونها فى الملمات والكوارث.

وكانوا يعتقدون أن الآلهة هى الأخرى لا غنى لها عن السحر، شأنها فى ذلك شأن باقى الناس، فهى تلبس الأحجبة والتمائم، وتستخدم الرقى والتعاويذ؛ ليقهر الواحد منها الآخر. . . وإذا فشل الساحر فى بلوغ ما يصبو إليه من سحره نسب ذلك إلى عمل ساحر آخر أكثر منه قدرة ومهارة[1].

والسحر فى القبائل الهمجية إما أن يكون موجهًا لصالح فرد واحد، وإما لصالح أفراد القبيلة على السواء، ففى الحالة الأولى يطلق عليه اسم السحر الخاص. وفى الثانية يطلق عليه اسم السحر العام.

(١) فنون السحر: أحمد الشنتناوى (بتصرف).

وأهم الأغراض التى يستخدم فيها السحر العام هو ضمان الحصول على الطعام لأفراد القبيلة، إذ ليس هناك غريزة أقوى من غريزة حفظ الذات؛ لذلك كان الأشخاص المشتغلون بتوفير الطعام لأفراد القبيلة ـ كالصيادين والمزارعين ـ لا يخرجون لأعمالهم إلا بعد أداء طقوس سحرية كثيرة معقدة يقوم بها سحرة القبيلة لضمان عودة هؤلاء الأشخاص مزودين بالكثير من الزاد والطعام.

وكان من أهم الواجبات الملقاة على عاتق السحرة فى القبائل الهمجية التحكم فى الأحوال الجوية، وخاصة ضمان هطول الأمطار ليكفى حاجات القبيلة، إذ بدونها تجف النباتات ويهلك الإنسان والحيوان.

وكانت وسيلتهم إلى استنزال المطر تقوم عادة على مبدأ السحر التقليدى، فإذا ما أرادوا استنزال المطر قاموا بأفعال تحاكى هطول الأمطار فيصطنعون نثر المياه، كما هو الحال عند سقوط المطر... وإذا ما أرادوا إحداث الجفاف لجأوا إلى اصطناع ما من شأنه يسبب الجفاف كإيقاد النيران تجفيفًا لرطوبة الهواء. فالسحرة فى القبائل الأسترالية البدائية ـ على سبيل المثال ـ كانوا يحمون الحجارة بالنيران، ثم يعرضونها بعد ذلك للمطر المنهمر، أو يلقون بالرماد الملتهب فى الهواء، وهم يظنون أنهم بعملهم هذا يحتبسون المطر؛ لأنه لا يجب أن يحترق بهذه الحجارة المحمية، وبهذا الرماد الملتهب.

وكانوا يعتقدون أيضًا أن الساحر يستطيع بسحره أن يتحكم فى الشمس ذاتها، وأن يتحكم فى الرياح، فيثيرها إذا أراد، أو يوقفها عن الهبوب.. فالقوى الطبيعية الكبرى من رياح وأمطار وبرق ورعد يستطيع أن يتحكم فيها الساحر.

كما يستطيع إلحاق الضرر بالغير... كما أنه يقدر على تخليص الفرد مما قد يحل به من آلام وشرور نتيجة لفعل الأرواح الخبيثة، فهو يلجأ إلى الدُّمَى والتصاوير التى تمثل الشخص الذى يريد إلحاق الأذى به ويعمل فيها سحره الضار، فينتقل هذا السحر إلى الشخص ذاته. وهذا ما كانوا يسمونه بـ «السحر الأسود».

وكان إذا شعر شخص بمرض أو ألم يتمشى فى أوصاله استدعى الطبيب الساحر، فيأتى ومعه بلُّوراته السحرية الشافية، ثم يركز أنظاره على المريض معرضاً بلوراته الشافية لأنظار المريض، ثم يدلكه ويمتص منه المرض الذى حل بجسده، وهكذا يبرأ المريض من مرضه!

* * *